مقاصد الحج

تقديم

أناهيد بنت عبيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

ألقيت في ١٤٣٧
من الهجرة النبوية الشريفة

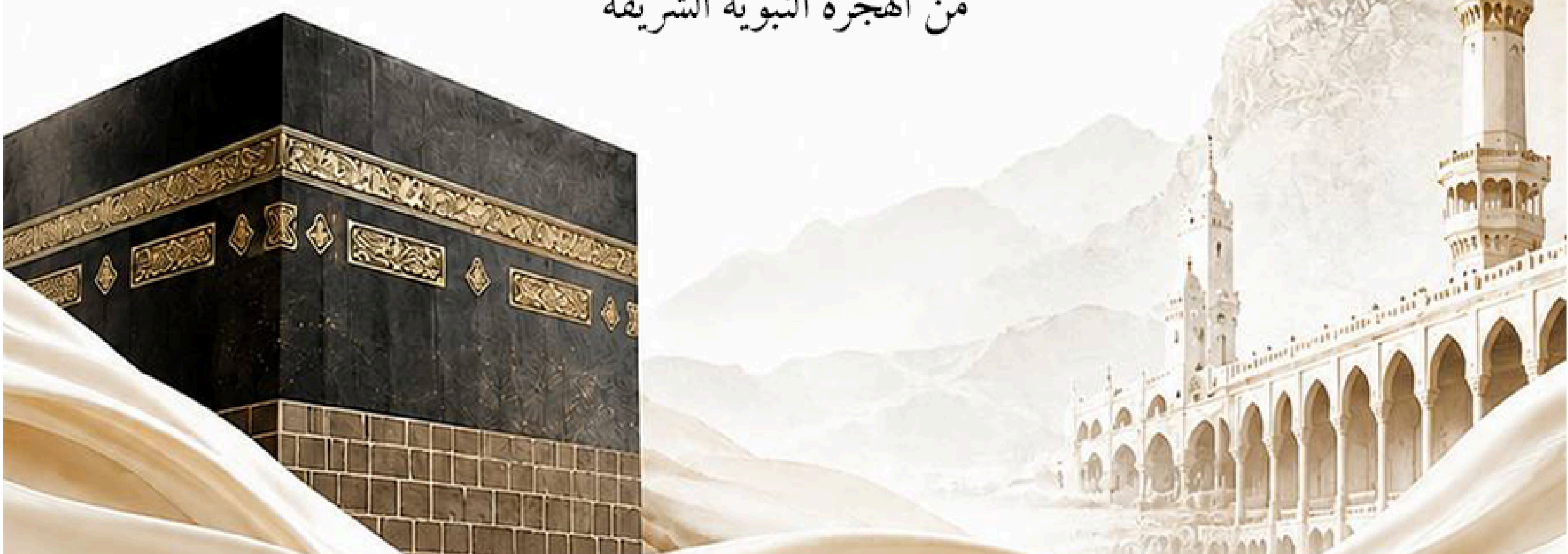

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِـلْـمٌ يُـنْـتَـفَـعُ بِــهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنّة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزّ وجلّ- ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الـموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثاني

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسّلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ما زلنا نناقش مقاصد الحج، وأردنا بالمقاصد: الغايات والأهداف المقصودة من وراء العبادات.

بدون المقاصد ستكون العبادات مجرّد أعمال ظاهرة، ولو تعلّمنا مقاصد العبادات، وحرصنا على أن نقوم بها، ستُحل كثير من الإشكاليات في السلوك ويُجاب عن الأسئلة التي تدل على أننا لا نفهم ماذا يريد الله من وراء هذه العبادة. لن ندخل في خانة الحلال والحرام، فهذه الخانة هي التي تُشكل علينا كثيرًا في التفكير، كثير من الطاعات والعبادات يكون أهم مقصد للطاعة أو للعبادة: التجرّد لله، الإقبال على الله، الذلّ لله. -وهذا مقصد مطلوب في كل العبادات-، فهذا الذل والانكسار أي شيء يخالفه يكون ممنوعًا في الطاعة والعبادة، أي شيء يأتي بالكبر، أو يدل عليه، أو يدل على أن الإنسان في حال عدم انكسار بين يدي الله -عزَّ وجلَّ- هذا ممنوع.

مثلًا نأتي إلى الصلاة، مطلوب منك فيها أن تحقق هذا المقصد؛ الذل والانكسار بين يدي الله، فلا تتفاخر بأشياء

وسط الصلاة، لا تقُم بأعمال تدل على أنك لست متواضعًا أو منكسرًا.

سأضرب مثالًا: يتفاخر بعض الناس بسجاجيدهم التي يصطحبونها ليصلوا عليها في المساجد، وكل شخص يريد الأكثر أناقة، الأكثر نعومة، الأكثر رفاهية، ويفعل الأفعال التي تدل على أنه يرى نفسه أحسن من غيره، ويدخل للصلاة.

الآن لو تناقشنا مجرّدًا في حكم الصلاة على هذه السجاجيد، لن نستطيع أن نخرج بنتيجة أن هذه السجادة ممنوعة، لن نخرج بهذه النتيجة.

لكن لو أتينا للمقاصد سنقول: أنت جئت منكسرًا ذليلًا، الذي تجده يسهل عليك الصلاة ائتِ به، ولا تأتِ بالذي تفتخر به وتتكبر به على الخلق، ولا تقِس الناس بسجاجيدهم! هذا الأمر بدأ يظهر بصورة بسيطة في بعض المواقف، لكن قد ينتشر ويفشو، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هذا لا ندخل فيه في خانة الحلال والحرام، هذا نناقشه من جهة أنك أتيت قاصدًا الذل بين يدي الله، هات من الأدوات ما يساعدك على الذل، وليس الذي يساعدك على التكبر.

وفي الحج تجد هذا الشيء واضحًا، في الحج الناس يفتخرون حتى بأقل الأشياء التي يلبسونها، أو يأكلونها، أو

يحملونها، وكلما زاد الافتخار، كلما خرجنا عن المقصد، فحينما يأتي أحد يقول لك: "هل حرام أن أحضر حقيبة من هذا النوع أضع فيها ملابسي؟"

لا أستطيع أن أقول لها: "حرام"، لكن لماذا تعمدت أن تحضر هذه الحقيبة؟ الجواب: "حتى يتضح أنّي من مستوى معين، أو أنّي لست متواضعة الحال، بل ألبس كذا، وأعيش في كذا، وأيضًا هذه حقائبي، يعني لو اشتركنا في الحملة فلن نشترك في الذوق!"

سنرجع إلى نفس السؤال مرة ثانية: هل أستطيع أن أقول لها: "حرام"؟ لا أستطيع، لكنك خالفتِ المقاصد، وحينما تخالفين المقاصد لن ترجعي بالثمرات كلها، ربما رجعتِ ببعضها، والباقي لم ترجعي به، وأحيانًا لا تكونين قد رجعت بأي ثمرة؛ نتيجة أنك ما أتيتِ على الهيئة التي يفترض أن تكوني عليها.

هل هذا الحج الخالي من الثمرات يجزئ صاحبه؟ نعم، يجزئه، نحن لا نتكلم عن كونه يجزئ صاحبه، أو لا، وهل سقطت عنه الفرض أو لا، أنا أؤكد هذا الكلام حتى يفهم ويتبين جيدًا أن المقاصد شيء آخر غير الأحكام، المقاصد لو لاحظناها ستسهل علينا أمور كثيرة، ويتغير تفكيرنا، ونعرف الغايات التي من وراء العبادات، فنستمتع بالعبادة من جهة؛

لأن هذه روح العبادة، ومن جهة أخرى نقطف ثمار العبادة، ننزل ونحن قد وصلنا إلى المراد، أو ابتدأنا في الوصول إليه، من الأمثلة التي لابد أن نكررها على أنفسنا، كما في حديث عائشة: «إنما جُعِلَ الطوافُ بالبيتِ والسعيُ بينَ الصفا والمروةِ ورميُ الجمارِ لإقامةِ ذكرِ اللهِ»[1] يعني الحج لإقامة ذكر الله. لا نحتاج في هذا الموقف أن نقول: "إذا أقمنا ذكر الله في الحج، فلا يمكن أن نقيم ذكر غيره في الحج!" لا نحتاج أن نقول: "لا تضيعِ وقتك، اذكر الله وافعل ما يدخل في ذكر الله"، وسيأتينا أن أحد المقاصد المهمة جدًا هو: ذكر الله.

ويأتينا أيضًا أنه:

1. بالقلب واللسان.
2. بالقلب وحده.
3. باللسان وحده.

وكيف يجب أن أتصرف حتى أصل إلى هذه الغاية.

الشاهد: أن المقاصد ستكون عبارة عن الغايات من وراء العبادات، الأهداف وراء العبادات، وراء الشعائر.

ما المقصود من انتقالنا؟ ما المقصود من رمي الجمرات؟ الذي تراه بعينيك كيف تراه بقلبك؟ كيف ترى الحشود؟ كيف

[1]() أخرجه أحمد (25080).

ترى عدم الاستقرار؟ أنتم تلحظون بالطبع عدم الاستقرار في الحج، هذه أحد صفات الحج العجيبة: أن الناس غير مستقرين. في الحج الناس محبوسون في أماكن، ويبقون في الحج ما داموا أنهم في المكان، ما يحق لهم أن يباتوا خارج منى، لا بد أن يكونوا موجودين في منى مادام أنهم في داخل النسك، إلى آخر الأعمال التي يمكن أن يفكر فيها أحد فيقول: "لماذا يشترط وجودي هنا؟ لماذا أحبس هنا؟"

هو لا يعرف أن هذا كله لا بد أن يكون وراءه مقاصد، أنت حقق هذه المقاصد بقيامك بالشعائر، قُم بالشعيرة كما ينبغي من غير تلاعب، وافهم المقاصد، ستصل إلى الثمرات.

أما هذا الحج الذي يأخذون فيه الناس بكل الرخص، كل أمر في الحج يأخذون بأقل ما يمكن فيه، فهذا لا يأتي بالثمرات أبدًا. هذه الاختصارات، وهذه القدرة على أن تخرج بأحكام -تستطيع أن تخرج بحكم، وينوب عنك هذا في الرمي، وينوب عنك هذا في كذا، وتستطيع أن تطوف الإفاضة في توقيت كذا، كل هذا عبارة عن أعمال تستطيع أن تقوم بها- في النهاية لن تجعلك تصل لثمرة الحج، ومن المؤكد أننا نريد أن نقيم العبادة ونحصّل ثمراتها. لابد أن نقيم العبادة، ونحصّل ثمراتها.

من أهم ثمرات الحج التي ستظهر من مجموع العبادة، ومن مجموع فهم المقاصد:

أن تفكير الإنسان سيتغيّر، ونحن أزمتنا الحقيقية أزمة تفكير، لا ننظر للدنيا كما ينبغي، لا ننظر للأمور كما ينبغي، لا نستطيع تفسير الأحداث التي حولنا كما ينبغي، لا نعرف وظيفتنا في الحياة كما ينبغي، فهذا التفكير المشوش يجعل الناس كلّما ناداهم ناعق، وذهب بهم مذهبًا ذهبوا معه؛ لأنهم لا يستطيعون أن يحددوا أين مكانهم في الحياة، ماذا يفترض أن يكون حالهم؟ فالعبادات ومن أهمها الحج تساعد الإنسان على صحة التفكير.

اتفقنا سابقًا على مجموعة مقاصد، واتفقنا على أن الحج دليل الإيمان، وأن أهم مقاصد الحج: إظهار الإيمان في قلوب المؤمنين، ومن المؤكد أن الحاج لا بد أن يكون في قلبه بذرة الإيمان؛ لأنه سيبدأ يقول: "لبيك اللهم لبيك"، ويدخل في النسك، ويطوف حول البيت، ويقيم الشعائر كلها، فلا بد أن يكون مؤمنًا بالله، وبملائكته، وبكتبه، وبرسله، وباليوم الآخر.

باختصار لو قلنا الإيمان بالرسل سنجد أنفسنا لابد أن نتكلم عن إبراهيم -عليه السلام- والرسل من بعده.

وإذا تكلمنا عن الإيمان بالكتب، فسورة الحج فيها من أوصاف الخلق، وفيها من أفعال الحج، وفيها من شروطه ما فيها؛ فالمؤمن بالكتاب يعرف أنه لا يعبد الله إلا كما أمره الله، والله أمر في كتابه، وعلى لسان رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

أيضًا الحاج لا بد أن يكون مؤمنًا باليوم الآخر، فالحج بنفسه فيه مشاهد من اليوم الآخر، والعبد يحتسب على الله أن ينفعه هذا الحج عند ربه حينما يلقاه.

والإيمان بالقضاء والقدر نبتته تزيد وتزيد كلما حج وهو مسلّم لله، يعرف حدود الخلق، ويعرف عظمة الربّ.

أما الذي يذهب متّكلًا على الخلق، معتمدًا عليهم، وعندما تصير أحداث يفزع قلبه إليهم، هذا لا يزيد إيمانه بالقضاء والقدر.

اتفقنا على أن أهم مقاصد الحج: رعاية نبتة الإيمان.

تزيد وتزيد هذه النبتة الموجودة في قلب الإنسان، حتى تكون كالشجرة الثابتة أصلها، والعالي فرعها، والتي تؤتي ثمارها كل حين.

إلى أن وصلنا إلى الإيمان بالله، الذي هو توحيد الله، واتفقنا أن هذا هو المقصد الرئيس من وراء كل أعمال الحج.

ثم بدأنا بمناقشة تفاصيل الحج، وبدأنا بالكلام حول التلبية، وقلنا إنه يظهر أثر التوحيد في الحج في كل الأعمال ابتداء من التلبية، سوف نبدأ من هنا مرة أخرى، ونرى كيف أن مناسك الحج والتوحيد تامة العلاقة.

نعود للكلام عن الباعث على الحج، اتفقنا على أن الذي يأتي للحج لابد أن يكون مؤمنًا بأن الله ناداه.

إذًا الباعث على الحج سيدخل في توحيد الله، والإيمان بالله.

نحن لو قلنا الإيمان بالله، أو قلنا توحيد الله، الكلمتان متماثلتان، الإيمان بالله هو توحيد الله، توحيد الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، إنما هو معنى الإيمان بالله، فإذا قلنا الإيمان بالله، أو قلنا توحيد الله، فالكلمتان سواء.

من أول نقطة في الحج، من أول حركة الحاج، من أول انبعاثه وخروجه وهو ذاهب للحج، ماذا يوجد في قلبه؟ كل هذه الجموع تخرج للحرم باعثها الاستجابة لله وللرسول، وقد دعاهم الله، كما هو معلوم، إلى الحج فيما سبق بأمر إبراهيم -عليه السلام- وفيما لحق في هذه الأمة، بأمر الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم.

إذًا الخارجون للحج ما استجابوا لغير الله، إنما استجابوا لله، استجابوا لنداء الله؛ ولذلك يردون على هذا النداء، فيقولون: لبيك.

الاستجابة لله -عزَّ وجلَّ- تشمل:

1. الاستجابة للإيمان.
2. الاستجابة إلى دين الله-تبارك وتعالى-.

كما أن هذه الاستجابة سيدخل فيها الإنسان في جميع شرائع الدين، فالذي يأتي كل سنة ويقول: "لم أحج الفرض بعد، اذهبوا بي إلى الحج!" ما الباعث الذي يجعله يفعل هذا؟ الاستجابة لأمر الله، هو مؤمن بالله، مؤمن بأن الله أمره، دخل في الإيمان، والذي يدخل في الإيمان لا بد أن يقوم بشعائر الدين.

فمعنى ذلك: أن هذا الذي يستجيب لنداء الحج، لا بد أن يحرك باعثه، ما باعثك على الحج؟ ما الذي يبعثك عليه؟ يبعثك الإيمان بالله وأن الله أمرنا بهذا الأمر، فيكون ردنا على هذا النداء أن نستجيب فنقول: لبيك اللهم لبيك، ونخرج للحج.

هذا الأمر منطلق المسائل؛ ولذا هذه الاستجابة ستربطنا مرة أخرى بإبراهيم -عليه السلام- ففي هذه الآية، أمر من الله لنبيه إبراهيم بأن يؤذن في الناس بالحج، فإذا أذّن في الناس بالحج، الناس سيأتون (رِجَالًا) على أقدامهم، فتتوقع أن تكون أماكنهم قريبة (وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ)[2]، أو على كل دابة قد ضعف بدنها من السير الطويل.

---

[2]() الحج: 27.

فكأنه يقال: سيستجيب لهذا النداء القريب، فيسير على قدميه، أو البعيد، فيركب حتى تضمر دابته.

وهذا قد وقع في كل زمان، واتفقنا على أن هذا الحج كان من زمن إبراهيم -عليه السلام- إلى النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- والأنبياء والرسل يحجّون ويأمرون أقوامهم بالحج، وبقيت هذه الشعيرة، وستبقى إلى يوم الدين، ما دامت الكعبة موجودة، إذًا الخلق موجودون؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس، وأول ما تزول الكعبة، فهذا إيذان بزوال الناس، وعلى ذلك الحج من إشارات بقاء الناس، وهجر الحج، وترك الحج، وذهاب الحج، وذهاب الكعبة، معناه ابتداء انتهاء الناس؛ ولذلك من علامات يوم القيامة وقرب الساعة، أن تكون الوحوش والسباع في مسجد النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وفي مكة، بحيث أن الناس اللذين يعمرون مسجد الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- والكعبة، يتركون هذه الشعيرة، فيذهب أهل الإسلام، وتذهب معالمه، إلى أن لا يبقى يدخل في هذه الأماكن المقدسة إلا الوحوش، والسّباع؛ إشارة إلى ذهاب الناس وانتهائهم.

إذًا، معنى ذلك أننا نعلم أن هذا الحج إنما هو رابط بيننا وبين الأنبياء جميعًا، وأننا نوحد الله -عزَّ وجلَّ- بالاستجابة لأمره.

إذًا الاستجابة ستكون توحيدًا، وهذه الاستجابة انقياد واقع في قلب عبد، مهتم أن يحج، مهتم أن يقيم الفريضة، وحتى إذا أقام الفريضة بقي عنده الشوق إلى بيت الله، وبقي عنده الحب لتلك الأماكن، وتلك العرصات، وتلك الأيام الفاضلة، وأحب أن يكون في عشية عرفة في عرفة، وقت النزول الإلهي، ويكون ممن يباهي الله بهم الملائكة، كل هذا يزيد على الفرض، يعني إنسان في قلبه انقياد وتوحيد، فيريد أن يقيم الفرض، ثم يزيد على الفرض بالشوق إلى تلك الأماكن، والشوق إلى تلك العبادات، والحقيقة ما يقبل على هذه الأماكن مؤمن، إلا ويزداد شوقًا، وما يستطيع أن يشبع من المرة الأولى ولا الثانية، هذا يشبه العمرة، يعني المعتمر يطوف بالبيت، يطوف طواف العمرة، ويسعى سعي الحج، ويعود فيطوف مرة أخرى، ومرة ثالثة، ومرة رابعة، ويبقى يتصور أنه انتهى الذي في قلبه، لكن الشوق يزداد لا ينقص لمثل هذه الأماكن، والآن هو ترك الحرم، وترك السفر، وعاد إلى دياره، فحينما يراها في أي وسيلة، يتحرك في قلبه مشاعر الشوق من جديد.

وهذا من مؤشّرات قوة الإيمان؛ لأنه يعلم أن هذا البيت بيت الله، ليس بيت أحد غيره، فيحب زيارة بيت الله، ويرى نعمة من الله بقاء بيته في الأرض.

ولذلك يبقى الناس قائمين، ما دام هذا البيت موجودًا، إذا ذهبت حرمة البيت، وذهبت عظمة البيت، وما بقي في الناس قوم يشتاقون لبيت الله، وهجر الناس بيت الله، معناه ذهب باقي الإيمان، ولم يبقَ في الناس بقية خير.

ما دام هذا البيت معمورًا، إذا الأرض ستبقى في حال من السلام، وإذا هُجر هذا البيت هجرًا تامًّا، إذًا سيذهب الناس لأن الله جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس، طالما هم يقيمون الطواف حوله، ويعمرونه بالعمرة، وبالحج، وبالإقبال عليه، وبالشوق إليه، فهذا كله من أسباب بقاء الناس، وإذا ذهبت هذه الأمور، سيذهبون هم أيضًا، إذا ذهب الإيمان من قلوبهم، سيذهب تعلقهم بالبيت، وإذا ذهبت مكانة البيت، سيذهبون هم أيضًا من الحياة، وبذلك تكون هذه أحد علامات يوم القيامة.

مما يسبب لنا زيادة الإيمان بالله علمنا بأن هذه الأرض اختارها الله -عزَّ وجلَّ- وأمر إبراهيم -عليه السلام- ببناء البيت فيها، وهو أول بيت وضع ليوحد الله -عزَّ وجلَّ- حق توحيده، والمقصود من الطواف والسعي إقامة ذكر الله، توحيد الله؛ ولذلك الذي يصل إلى هذه الأماكن، ويصل إلى بيت الله، عيب عليه أن يطلب غير الله، عيب عليه أن يلتفت قلبه لغير الله، فهو في بيت الله، وهو ضيف على الله؛ ولذلك

هؤلاء الحجّاج والمعتمرين كلهم ضيوف على الله، وصلوا بيته، فكان الواجب أن يكونوا أقوى في توحيدهم، أقوى في سؤال ربّهم، أقوى في التعلق به، فهم في بيته، ومطلوب منهم التوحيد في كل مكان، لكن تصور أن تصل إلى بيت الملك، ثم يلتفت قلبك إلى غير الملك! هذا أمر معيب؛ ولذا كان هذا البيت العظيم، والطواف حوله، والسعي فيه، وقراءة القرآن، وإقامة كل العبادات، إشارة إلى توحيد الله؛ لأن العبد يعلم أن الله وضع له بيتًا في الأرض، ليأتي الناس، ويطرحوا كل شيء، وكل أحد، وكل اهتمام يهتمون به، ويأتون إلى بيت الله مجرّدين من كل شيء؛ ولذا ترون الرجال في الحج والعمرة يأتون مجرّدين من ملابسهم، فكأنه يقال: "عندما تأتي إلى بيت الله، المفترض أن توحد الله -عزَّ وجلَّ- في عملك، وفي مقصدك، وفي يومك وليلتك، في حالتك، بحيث لا يلتفت قلبك لغيره.

وهذا سيحل لنا مشاكل كثيرة، سيحل لنا مشكلة أن الناس يطوفون وجوالاتهم في أيديهم! يطوفون وهم يصورون أنفسهم، يطوفون وهم يتكلمون، ويتناقشون، ويعلقون على الناس، ويفكرون في تصرفاتهم، هذا وأنت أتيت لبيت الله لتوحد الله، ولا تلتفت لغير الله! فكل هذه الانشغالات ما هي إلا عدم تجرّد لله.

عندما نحقق المقصد من الطواف، من السعي، من دخول بيت الله، لا نحتاج أن نعظ أحدًا، ونقول له: "إذا لم تكن بحاجة إلى جوالك، فلا حاجة لأن تنزل به معك، وإذا لم تكن بحاجة إلى مطالعته لشيء ضروري فلا تخرجه من حقيبتك، هذا للطوارئ، أنت أتيت بيت الملك، عيب أن تدخل بيت الملك وتلتفت لغيره، وتهتم بغيره، وتقضي وقتك في غير طاعته، وهو قد أنعم عليك، وأعطاك، وأوصلك إلى بيته، فالمفترض تنشغل بذكره"

هذا هو التوحيد، أن تأتي وقلبك ليس فيه غير طلب رضا الله، تشعر أن مسؤوليتك في يومك وليلتك أن تبقى ذاكرًا، عابدًا، سائلًا، حتى لو فترت همتك عن كل الطاعات، انظر لهذه الحشود العجيبة التي تدخل إلى بيت الله، لا يوجد وقت ينقطع فيه الطواف، لا يوجد وقت -خصوصًا والله عمّر هذه الديار بالسّنة- إلا والناس لا يعبدون إلا الله، ولا يتمسحون، ولا يتبركون، ولا يلتفتون عن بيت الله، بل يأتون ويقيمون السّنة، ويفعلون ما أمرهم الله -عزَّ وجلَّ- فلا ترى إلا ذكر الله، ما ترى في بيت الله نداءً لغير الله، إلا طبعًا عندما يأتي هؤلاء الذين عندهم فكر كذا، وفكر كذا -أسأل الله أن يخلص المسلمين من شرهم- هؤلاء الذين يمكن أن ينادوا غير الله، أو ينادوا معبوداتهم، أو ينادوا مقبورينهم، لكن الحمد لله لا

يذكر إلا الله، و لا يلبّى إلا لله، ولا يسأل إلا الله في هذا البيت -أسأل الله أن ينشر التوحيد على كل ديار المسلمين!-

الشاهد أنك سيزداد إيمانك بالرسل عندما تصل البيت، وتعرف أن إبراهيم -عليه السلام- أمره الله ببناء البيت هو وإسماعيل، وأنهما كانا يسألان الله القبول، وكانا حينما يطوفان يسألان الله أن يريهما مناسكهما.

إذًا أنت صلتك بهذا البيت أنه بناه إبراهيم إمام الموحدين بأمر الله، فإبراهيم -عليه السلام- إمام الموحدين، هو الذي يوصلك بالبيت، هو الذي تتذكّره وقت الكلام عن بناء البيت، وله من المقامات الشريفة في التوحيد ما يجعلك تنتفع بتقليده، هو ونبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم-.

المقصد بهذا الكلام، أن هذا البيت بيت الله، إذا أقبلت عليه، اترك كل أحد غير الله، خارج هذا البيت. الممارسات العادية، والحياة الطبيعية، هذه لا مانع منها، لكن لاحظ أنك تكون محرمًا، ماذا تعني محرمًا؟ مادة الإحرام هي من حرام، فهناك أمور هي في أصلها حلال، حرّمت عليك تعظيمًا للبيت، فحُرّم عليك الترفّه، هذه هي الكلمة المختصرة لكل الأعمال التي مُنعت منها. الترفّه، لا تأخذ من الشعر، لا تضع الطيب...هل مُنعت من الترفة لكي تترك الطيب والأخذ من الشعر، وتغوص في الدنيا، وتتكلم عنها؟! أنت مُنعت من

الترفّه لتعطي ظهرك للدنيا في زمن معين، فلا تترك الدنيا من جهة، وتجد نفسك غارقًا فيها من الجهة الأخرى! عندما تفهم هذا المقصد، لن نحتاج أن ننصحك، ونعظك بأن تترك الدنيا والكلام عنها، تجد الناس مثلًا أتوا في رمضان -هذا موقف كثيرًا ما يتكرر- وسيطوفون عصرًا، وفي العصر يكون الجوع قد بلغ أقصاه، فطوال الطواف يقولون: "أين سنأكل؟ ماذا سنأكل؟ ماذا نفعل الآن؟" ألا تستطيعون الصبر حتى المغرب؟! اصبروا حتى المغرب، اصبروا حتى تفرغ أنفسكم من الدنيا؛ لأنكم دخلتم في الصيام تاركين الطعام والشراب، وفي العمرة تاركين كل شيء يتصل بالدنيا، فالآن تذكروا الله.

طبعًا عندما يأتي نقاش مثل هذا يأتي من يقول: "هل حرام أن أسأل ماذا سآكل؟" لن نجيب طبعًا إنه حرام؛ لأنه لا يجوز لنا القول بأنه حرام، لكن المقصد ألا تفعل ما ينافي المقصد. يوجد الكثير من المباحات، الأصل فيها الإباحة، لكن نقول لك: اترك الدنيا، وأقبل على الآخرة، وتعال هنا لذكر الله، وهذا بيت الله، وتجرّد لله، ووحّد الله، ولا يلتفت قلبك لغير الله، لا تجلب الدنيا كلها من دولابك وتضعها في حقيبتك! أنت هنا أتيت لتنقطع خمسة أيام عن الدنيا، وتنتقل من نوع من

الذكر، إلى نوع من الذكر، تخرج من نوع من الأعمال، إلى نوع.

وليس معنى ذلك أن تترك الدنيا بمعنى ألا تأكل، ولا تشرب.

المقصد ألا تدخل في ترفيه نفسك، ابقَ هنا حابسًا نفسك، موحدًا الله، وسترى أثر هذا حينما تخرج، يعني خمسة أيام كالمحطة العظيمة في حياة الإنسان، يمتلئ فيها إيمانًا، وتقوى، ويقينًا، حتى أنها تبقى في حياته كالعلامة المميزة.

المشاعر التي يكتسبها الإنسان بعد حج صحيح يبقى أثرها مدى العمر، كلما تذكرت هذه المشاعر التي خرجت بها، لا بد أن تحرّك في النفس طلب زيادة الإيمان، لأنه يكون الإنسان شعر وقتها بزيادة الإيمان، وتبقى مشاعره في مواقف الحج ترتبط باليوم الآخر، ترتبط بلقاء الله، ترتبط بمسألة الانتظار، ترتبط بأشياء كسب فيها مشاعر، فتبقى مؤثرة على تفكيره مدى الحياة.

إقبالنا على بيت الله، إنما هو لوجه الله، فلا بد أن يكون العبد في هذا الموقف تام التجرد من كل شيء.

أيضًا مما يدل على التوحيد في هذه الأعمال: طلب القبول، وهنا قضية غاية في الأهمية في التوحيد، وفي الحج، وفي الحياة كلها.

الآن إبراهيم -عليه السلام- بنى البيت هو وإسماعيل -عليه السلام-وبقيا يسألان الله -عزَّ وجلَّ- أن يتقبل منهما، وكل حاج، ومعتمر، وعابد، أكثر شيء يشغله، بعد الشّروع في الطاعة، بعد دخول الطاعة، القبول، يعني أنت قبل الشّروع في الطاعة أكثر شيء يشغلك: التوفيق للقيام بالطاعة، قبل الحج تبقى تتقلب على فراشك في الليل، وتقوم في الليل، تسجد لله في الصلاة، طوال الوقت تطلب من الله -عزَّ وجلَّ- : "ارزقني حجًا مبرورًا، لا رياء فيه، ولا سمعة!" طوال الوقت تكون مهتمًا بأن توفق لعمل صالح، يحبّه الله، التوفيق للدخول في العمل والقيام به يكون همك قبل الدخول.

بعد أن تدخل، وتبدأ في المناسك، أو تبدأ في الأعمال، سواءً الصيام، أو القيام، ما الذي يشغلك بعد ذلك؟ القبول.

طلب القبول، والانشغال بالقبول، من علامات التوحيد، لأنك ما خرجت إلا ليقبلك الله، لكن هذا الطريق شائك جدًا، لا نستسهل مسألة طلب القبول، ولا نستسهل مسألة الانشغال بطلب القبول، بمعنى: أن النفس في الطريق تنسى أنه ليس المطلوب مجرّد القيام بالعمل، إنما المطلوب قبول الله للعمل، ففي النفس من عمل الشيطان، وفي النفس من غرور النفس، أحوال تجعل الإنسان يتصور أنه إذا وفق للطاعة، يعني وفق للقبول، يعني يجعل الاثنين سواء، بمعنى: أن كل من حج

قُبل، وهذا ليس صحيحًا، ليس كل من حجّ قُبل، وانظر إلى إبراهيم -عليه السلام- وإسماعيل -عليه السلام- كيف كان حالهم؟ ائتمرا بأمر الله، وشغلهما قبول الله.

لماذا نتوقع من أنفسنا أنها لا تنشغل بطلب القبول؟ نحن لو أن نبهنا أحد أنه من المهم طلب القبول، فسننتبه. حتى عندما نُنبه ويكون القلب ليس ممتلئًا بالإيمان والتوحيد، تصبح هذه العملية على اللسان، يعني كل الناس وهم يتكلمون بعد الحج يقولون: "تقبل الله منا"، ثم تجدهم يتكلمون عن أشياء أخرى، ويتكلمون ويصفون بالتفصيل كيف عبدوا ربنا، كيف ذهبوا إلى عرفة، كيف دعوا، كيف كان كل الناس مشغولين، أما نحن فبقينا ندعو طوال نهار عرفة! ثم قبل وبعد كل هذا الكلام نقول: "تقبل الله منا!" هذا معناه أنك تطلب بعملك ثناء الناس، وهذا الذي يشغلك، ولو قلت قبل وبعد وأثناء كلامك: "اللهم تقبل منا!" فأنت لست في حال تستوجب القبول، لست في حال العبد الذي يطلب القبول من ربّه؛ ولذلك كان من التلبيات التي وردت عن السلف: "لبيك حجًا لا رياء فيه، ولا سمعة."

ما معنى حجًا لا رياء فيه ولا سمعة؟ لماذا التنصيص على أنه لا رياء فيه ولا سمعة؟ لأنه أكثر عبادة لا يمكن القيام بها إلا مع الناس، لا تستطيع أن تقوم بهذه العبادة إلا مع الناس،

أنت تستطيع أن تصوم وحدك، وتقوم الليل وحدك، وتتصدق، وتزكي وحدك، يعني أركان الإسلام كلها تستطيع أن تقوم بها وحدك، ما عدا الحج، لا تستطيع أن تحج إلا مع المسلمين، وهو أعظم اختبار لليقين بالإخلاص، لليقين بطلب رضا الله -عزَّ وجلَّ-.

الحال التي نحن فيها، هي حال كيل المديح، حالة من الغرق في المديح، نتيجة أسباب كثيرة، هذه الأسباب ملخصها: "ما نحن فيه من النعيم والرفاهية التي نعيشها، فأصبح الناس يلتفت بعضهم لبعض، يطلب بعضهم ثناء بعض، يريد بعضهم رضا بعض"، طوال الوقت الناس يثنون على بعض، وجاءت هذه الأجهزة والاتصالات بين الناس، وسهولة الكلام بينهم، وسهولة الكتابة، فصار هذا يكتب كلمة بسيطة أو يفعل شيئًا بسيطًا، أو يطبخ طبخة، والناس يكيلون له المديح، ويبحث هل كلهم مدحوه أم لا! صار الناس مدمنين على المديح، وإذا صنعنا معروفًا ولم يمدحنا أحد، تحصل لنا الأحزان، ومباشرة نأتي بالدليل: «ومن لم يشكرِ النَّاسَ لم يشكرِ اللهَ»[3]. ليس صاحب الإحسان من يقول ذلك! هل تحسن إليّ ثمّ تطلب مني الشكر؟! لا، لكن أنا أقول ذلك لنفسي عندما أريد شكرك، متذكّرًا حديث النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-.

---

[3]() أخرجه عبد الله بن أحمد في ((زوائد المسند)) (18449).

ويقول ذلك أيضًا من رأى الموقف، ووجدني قصرت في الشكر، هو يعظني، يقول لي: "اشكره؛ لأن هذا حقه الذي شرعه الشرع"، لكن ليس أنت صاحب الإحسان من تقول ذلك.

فالناس عندما وضعوا هذا القانون في أذهانهم، أصبحت أعينهم على كل إحسان منهم، لم يعد يشغلهم قبول الله، صار يشغلهم مكانهم عند الناس! وبهذا نجد أن التوحيد يتفكّك، يعني بعدما كان الله مقصدهم في الطاعات، وفي الذكر والعبادات، أصبحوا يأتون في هذه اللحظة التي يُطلب منهم أن يخفوا هذه العبادات تمامًا، ويسكتوا عنها، ويطلبوا من الله القبول، ويخافوا أن يكونوا مردودين، ويتباهون بين الناس وينتظرون أن يشكرهم الناس، والحقيقة هنا يُفقد التوحيد، يُفقد التوحيد في اللحظة التي يطربك فيها ثناء الناس، في اللحظة التي يصبح فيها مقصدك أن يثني عليك الناس، وتحب أن تسمع منهم: "ما شاء الله كل سنة تحجّ، ولا تستطيع أن تعيش إلا إذا حججت!"

المقصد أن الموحدين حالهم توحيد الله في طلب الثناء، ما يريدون إلا ثناء الله، ما خرجوا ولبّوا نداء الله إلا من أجل أن يُثني الله عليهم، لا يشغلهم أبدًا ثناء الناس، بل هم خائفون، بعد كل هذا التعب الذي تعبوه في الحج، أن يكون جزاؤهم أن

هذا يمدحهم، وهذا يمدحهم، وينتهي الأمر! لأن هذا الذي يحصل يوم القيامة، إذا قام العبد بعبادات وطلب مدح الناس، يقال له: "اذهب وخذ حقك من الناس الذين طلبت منهم المدح!" وقد أخذ حقه في الدنيا، وسمع هذا، وسمع هذا، وسمع هذا، وطُرِب بالمدح.

فهذه أزمة، لا بد قبل أن نخرج إلى نسك الحج أن نعالج نفوسنا؛ لأن أخطر شيء علينا، مدح الناس وثناؤهم، وعلينا قدر المستطاع أن نتحاشاه، وقدر المستطاع أن نختبئ، وقدر المستطاع أن تكون عباداتنا بيننا وبين ربنا، بقدر المستطاع لا نستعرض، ولا نتكلم عن أي عبادات، وتأتي مسألة القدوة غالبًا ما يعتذر الناس بها، يقولون: "نحن لا نتكلم إلا من أجل القدوة"، الحمد لله السلف الصالح فيهم خير القدوة، قل لهم: "فلان من السلف كان يقوم الليل ويفعل كذا وكذا" يأتي من يسألك: "ما حكم قيام الليل في الحج؟ لأنهم قالوا لنا اقصروا الصلاة ولا تصلّوا الرواتب" فلا تقل لهم: "لا، أنا أقوم اليل" وتحكي حالك! أنت لست الحُكم هداك الله! بل قل: "من المشروع قيام الليل، يعني تُرك إتمام الفريضة، وتُركت الراتبة، أما النافلة المطلقة كقيام الليل والضحى فلا مانع منها، وقد كان السلف يفعلون" السلف وليس أنا!

إذًا علينا التّحفظ الشديد على الأعمال، لا تترك نفسك وفق راحتها، لأن هذا يخدش التوحيد. وإن ظننت أنك لا تقصد هذا، فلا بد أن تفهم أن نفسك تحتال، والشيطان لن يتركك، نحن في الحج لسنا مثل رمضان، رمضان الله -عزَّ وجلَّ- امتن علينا بمنة عظيمة؛ حبس عنا مردة الشياطين، شهر بالكامل، أما هذه الخمسة أيام فقد تُرك الإنسان للجهاد لأن الحج صورة الحياة، هذه هي الحياة، هذه التنقلات التي نعيشها في الأيام والليالي، هي نفس التنقلات التي نعيشها في عشر أو خمس سنين من حياتنا، يعني كأنه يقال: "كم عمرك؟ خمسين؟ أربعين؟ هذه الخمسة أيام تمثلها"، أنت يوم هنا، ويوم هنا، فلابد أن يكون العدو معك، ثم ليس عدوك أنت فقط، ولكن عدو الذي يجلس معك أيضًا، يعني الشيطان يحرضك، ويحرضه هو أيضًا، إما بالعداوة، وإما بالدخول في الرياء، فكل هذه أبواب خطيرة لا بد أن نحفظ فيها توحيدنا.

إذًا، مقصد الحج: إقامة التوحيد، ومن أعظم أبواب إقامة التوحيد: توحيد طلب الثناء، وهو ما نعبر عنه في الشريعة بكلمة طلب القبول.

من الذي تريد أن يثني عليك؟ تريد أن يثني عليك الله، وهذا يسهل عليك حتى القضاء والقدر، يعني يأتيك اتصال يقال

لك: "ألم تصل إلى مخيم منى؟ ألم تصل إلى مكانك؟" هذا في صباح يوم العاشر مثلًا، يوم العيد، الناس وصلوا وأنت لا تزال في الشارع، فهذه مشاعر صعبة، أن يصل الناس وأنا أبقى هنا، ضللت الطريق مثلًا، أو أي شيء، فأنت يراك الله في السماء، ويرى هذه الشمس الحارقة، وقدمك التي تسعى وتدور لتصل، كل هذه الأحداث مكتوبة، وكفارات، وغسل للذنوب، وصبر، وأجر، الله في السماء يثني عليك، عندما تصل يقال لك: "لماذا تُهت بعد أن كنت قريبًا، وماذا بك؟ نحن جئنا، وارتحنا، ونمنا، وأنت باقٍ هناك!" فتأتيك كل مشاعر اللوم، أو مشاعر الغيظ، كل هذا اتركه، الله في السماء يثني عليك، يراك، ويسمع نداءك، ويسمع تضرعك، ويسمع سؤالك، ويسمع طلب الحول والقوة منك، ويعينك، ويرفع مقامك، ويجعل هذا كله في الميزان، بالإضافة إلى التوفيق، وبيان الطريق غدًا، وحالة من الاستقرار النفسي التي تحصل للإنسان بعدما يقبل قدر الله، وبعدما يستغيث بالله، وبعدما يقوم بما يجب عليه مع الله.

في النهاية طلب القبول، والثناء من الله لا بد أن يكون فيه توحيد، وهذا من الأشياء المهمة جدًا في الحج، لا ندخل الحج إلا ونحن قاصدون ثناء الله، طالبون رضاه، خائفون من أن تُصرف أجورنا على ثناء الخلق، لا نريد ثناء الخلق.

نحن لا يكفينا في توحيد طلب الثناء والقبول أننا نريد ثناء الله فقط، بل نحتاج إلى أمرين معًا:

1- نريد ثناء الله.
2- لا نريد ثناء الناس.

يجب ألا نريد ثناء الناس، نخاف من ثناء الناس. لكنك تحب أن يكون لك لسان صدق، يتكلم الناس عنك جيدًا. نعم، هذا عندما يلقيه الله لك في الأرض، لا أن يكون هذا مطلبك من الطاعة والعبادة، إنما هذا أثر من فضل الله على خلقه، فأنت عندما تخرج للطاعة والعبادة، كل تفكيرك يكون دائرًا حول أن يرضى الله، وتخاف أن يكون شاغلك الناس، لا يشغلك الناس أبدًا، وعندما لا يشغلونك، ستري كيف أن الله -عزَّ وجلَّ- سيكفيك شرهم، وكيف أن الله -عزَّ وجلَّ- سيردهم عنك، وكيف أن الله -سبحانه وتعالى- يحميك، ويحفظك من الدخول في اللغو، من الدخول فيما لا يرضاه، أشياء كثيرة يحفظ منها العبد عندما يدخل وهو يريد وجه الله، ولا يريد ثناء الناس، ثم بعد هذا كله يلقى له القبول في الأرض.

ليس مطلوبًا منك أن يكرهك الناس، ولكن المطلوب منك أن لا تجعلهم مقصدك، أما بقاء الذكر الطيب فهذا من الحاجات النفسية، لا مانع منه، لكن ليس لأجل تحقيقك لهذه الحاجة تقصدهم بالطاعة! اقصد الله بالطاعة، يجعل الله

قلوبهم تُشرح لك ويقبلونك، إلى آخر هذه الحاجات النفسية التي تصلك بهدوء، دون أن تكون طالبًا لها، ملحًا، كأنك تتسول منهم هذا الرضا، والصحيح أنهم لا يستحقون منك أن تلتفت لهم، بل القبول من الله -عزَّ وجلَّ- يغنيك عن كل الخلق، هذا كان الكلام حول مسألة طلب القبول.

نأتي الآن إلى مسألة، تكلمنا عنها، أن الكعبة البيت الحرام جعلها الله قيامًا للناس، يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم، وبذلك يتم إسلامهم، وبه تُحط أوزارهم، وتحصل لهم بقصده -يعني بقصد البيت-العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تُنفق الأموال، وتُقتحم من أجله الأهوال، فتبقى هذه الأشياء التي هي صعوبات تدل على قوة الإيمان، لأن الناس لا يصلون إلى البيت بسهولة، لا بد أن يقتحموا المصاعب، فإذا كانوا مستعدين لاقتحام المصاعب من أجل الله، فكان هذا البيت قيامًا لهم، يبقى دينهم قائمًا ما داموا اقتحموا المصاعب من أجل هذا البيت العظيم.

هذه فوائد كثيرة للاجتماع في بيت الله، لكننا نريد أن نصل فقط إلى مسألة التوحيد.

نأتي إلى فضائل البيت العظيم: سميت مكة بأم القرى، وسماها الله -عزَّ وجلَّ- بالبلد الأمين.

هنا يظهر شيء من التوحيد، عندما تنظر إلى شرائع الله، وتشريعه -سبحانه وتعالى- بجمع الخلق في بيته، وتنظر إلى أنه أكرم خلقه بأن يجتمعوا على اختلاف ألوانهم، وعلى اختلاف أحوالهم في مكان واحد، وتظهر المساواة بينهم، هذا الكرم من ربّ العالمين يجعلك تخرج بثلاث دلالات من جهة التوحيد:

سنبدأ بالدلالة الأولى التي ذكرت في سورة الروم: اختلاف الألوان والألسنة دليل على عظمة الله، من أكثر الأشياء التي تلفت نظر الزائر للبيت الحرام، خاصّة في موسم الحج، أنه يشهد أن خالق هؤلاء كلهم واحد، مع اختلاف ألوانهم، واختلاف ألسنتهم، واختلاف طبائعهم، واختلاف فهومهم، وأنت تجد الصف الواحد في الصلاة -غالبًا في الحج، مع اختلاط الناس، وخصوصًا الصفوف التي تكون قريبة من الطواف، تجد أعجب العجب! - الناس على جميع درجات الألوان، وعلى جميع اللغات، وعلى كثير من اللهجات، حتى الذين يكونون على لغة واحدة يختلفون في اللهجات، فهذا من المواقف التي تشعرك بالتوحيد، كون هذه آية في اختلاف الألوان والألسنة، فالذي خلق هؤلاء كلهم واحد -سبحانه وتعالى- فاختلاف ألوانهم وألسنتهم هذه تسمعينها، لكن حينما ترينها تشعرين بالدهشة منها، يعني لو أتينا مثلًا لأصحاب

اللون الأبيض، حتى وهم لونهم أبيض، لا تجدي البياض واحدًا! وأصحاب اللون الأسود أبدًا لا تجدي السواد واحدًا، فهم مختلفون حتى في سوادهم! مختلفون حتى في بياضهم، فهذه الدرجات العجيبة المختلفة بين الخلق، كيف تميزت؟ إنما خلقهم ربّ العالمين، خلقهم الواحد -سبحانه وتعالى- فهذه أحد الآيات المهمة التي تثبّت التوحيد في القلب، أن يأتي الإنسان إلى أمّ القرى، ماذا سيحصل في أمّ القرى؟ سيجتمع الناس من كل مكان فتصبح أمّ القرى كالأم بالنسبة للقرى ولساكنيها، هي سميت بأم القرى لأن الخلق يجتمعون فيها اجتماع الأبناء عند أمهم، فترى الخلق على اختلاف ألوانهم، وعلى اختلاف ألسنتهم، الروم، الفرس، أهل شرق آسيا، طبعًا تعرف هذا الشيء، وهذا الشيء واضح جدًا، هؤلاء كلهم يجتمعون، فأنت تؤمن بأن الذي خلقهم واحد، هذه أول النقاط ومن أهمها، وبيانها واضح في سورة الروم، وقد جعلها الله من آياته، يعني من آياته: (اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)(4) هذه من آيات الله الدالة على توحيده.

الدلالة الثانية: انظر إلى هؤلاء على اختلاف تفكيرهم، وأحوالهم، وأوضاعهم، وبلدانهم، لكنهم صدّقوا بالله العظيم، واتبعوا الرسول الكريم، أنت في أحيان كثيرة ربما تقول: كيف حاج ومن الصين الشعبية؟ كيف وصل الإيمان له؟

---

(4) الروم: 22.

كيف وصل الإسلام له؟ كيف بلغه هذا النور؟! ثم تجد هذا من هنا، وهذا من هنا، فتعرف أن الله -عزَّ وجلَّ- يخلق ما يشاء ويختار، وأن الإنسان إذا صدق في الإقبال على الله، وطلب الهداية، الله -عزَّ وجلَّ- سيمده بالطريق الموصل إليها.

بصورة أخرى، لا تتصور أن الإسلام عندك، أو في بلادك، أو في بلاد العرب، اذهب إلى الحج وانظر أي مبلغ بلغ الإسلام؟! وفي أي أرض موجود؟! وحتى الدول التي تضرب بيد من حديد، يعني الدول الشيوعية وما بقي منها، لازال الإسلام باقيًا فيها، يعني دول أواسط آسيا آية من آيات الله؛ لأن الدولة الشيوعية لم تترك طريقًا إلا وسلكته حتى تنزع الإسلام منهم، واقرؤوا في التاريخ المعاصر تعرفون، ثم هذه الدول ترى اليوم منها حجيجًا كبارًا في السن، في سن الستين والسبعين هؤلاء من المؤكد أنهم عاشوا في الدولة الشيوعية، كيف حُفظ إيمانهم؟! كيف بقوا على الإسلام؟! كيف لم يستطيعوا أن ينزعوا من قلوبهم الإيمان؟! كيف ييسر له حتى يصل إلى الحج؟!

كل هذا دليل على أن هذا الإيمان، وهذه الهداية إنما بيد الله وحده، ومن صدق في طلبها ولو كان في آخر الدنيا، الله -عزَّ وجلَّ- يصدقه، وييسر له الهداية، ويوصله إلى بيته الحرام، وأنتم تعلمون أن هذه الديار المحيطة بالبيت العظيم، مكة وما

يحيطها جدة والطائف، فيها الكثير ممن لم يحجوا حج الفريضة! وهذا يأتي من آخر العالم! الله -عزَّ وجلَّ- يحمله، ويصل ويحج حج الفريضة قبل هؤلاء المجاورين.

فالهداية من ربّ العالمين، يعني لا تظن أن بُعد الديار معناه البُعد عن الله -عزَّ وجلَّ-، ليس الذي ابتعد عن ديار الاسلام أو ابتعد عن أم القرى، يكون ابتعد عن الدين، الله -سبحانه وتعالى- قريب من جميع خلقه، لا أحد يصدق في طلب الهداية ولا يدله الله، لا بد أن يدله ربّ العالمين.

نحن يجب أن نذكر أنفسنا بالأصل، يعني الإنسان في الحياة حينما يولد، يولد على فطرته، وهذه الفطرة موجودة محفوظة إلّا أن يعبث فيها أحد، فإذا بقيت الفطرة محفوظة، والآيات الكونية حول الخلق، لا بد أن تدفعهم الفطرة فيسألون: "من فعل هذه الأفعال؟" فإذا صدقوا في طلب الفاعل، وفي التفكير فيه، وبقوا يقولون: "هذه الدار الدنيا لا بد أن يكون لها صاحب"، نحن ندخل أي دار نجدها مرتّبة ونظيفة فنقول: "هذه الدار لا بد أن لها صاحبًا، وصاحبها له هذه الصفات"، فكيف بدار الدنيا المنظمة، السائرة على طريق واحد، ما اختل فيها شيء، لا بد أن يكون لها صاحب، فهم طيلة الوقت يقولون: "من صاحبها؟ وماذا يستحق منّا صاحبها؟ وهل

يُعقل بعدما أعطانا، وآوانا، وكسانا، وأطعمنا، وسقانا، أن يتركنا هملًا لا قيمة لنا؟"!

هذا الذي يتحرك في الفؤاد هو ما نقصده، طلب الهداية، لا يوجد أحد يكون بهذا الصدق إلا ويوصله ربّ العالمين إلى الحق، ولتتأكد من هذا انظر إلى هؤلاء على أشكالهم، وألوانهم، وأوضاعهم، وأحوالهم، تعرف أن هؤلاء مجرد نموذج، في ديارهم الكثير من المؤمنين الذين اهتدوا بدون أن يمد أحد من المسلمين يده إليهم، ولا يدعوهم، إنما الفطر السويّة، والآيات الكونيّة، دعت هؤلاء إلى الإيمان، فهداهم ربّ العالمين. إذًا هذا من التوحيد، وهذا التوحيد يجعلنا نقول: "ربنا الذي هدى الذين في الصين، والذين في أواسط آسيا، والذين في حدود القطب الشمالي، قادر على أن يهدي أولادنا وأحبابنا، فهو على كل شيء قدير." وهذا يأتي لك بالأمل وزيادة الإيمان بأن الله -سبحانه وتعالى- قريب من خلقه، يعلم أحوالهم، فتصير مسؤوليتك تصحيح ما في قلبك من صدق، وإخلاص، وإقبال على الله، وملاحظة كيف يرعانا الله ويحفظنا ويزيدنا إيمانًا.

تأتي الدلالة الثالثة من دلالات التوحيد، وهي: دلالة السّعة التي تحصل مع وجود الأعداد العظيمة، والحفظ الذي يحصل

مع وجود الأعداد العظيمة، أنتم تعلمون، أن هذا البيت، وهذه الشّعائر سواء كانت عرفة، منى، مزدلفة، إنما هي كيلومترات، منى ٥ كيلو متر، المنطقة التي يجتمع فيها الناس لرمي الجمرات أصغر من ذلك بكثير، ومع ذلك الناس ينتقلون، ويأتون، ويذهبون، ويجتمعون، والله يوسّع عليهم، والله يجعل هذه الأرض كما يقول بعض العلماء: "أرض منى تصبح كالرحم، تتسع للحجّاج،" كأنها الرحم تتسع للحجّاج، يجتمع الناس فيها، ويكونون في أحسن حال، ومثله في المطاف، ومثله في السعي، ومثله في كل شيء. بل الأعظم من ذلك، من يسقي هؤلاء كلهم؟

وتأمل هذه الآية العظيمة، تأمل حكمة الله، لما أتى موقف إبراهيم -عليه السّلام- وموقف هاجر، وموقف إسماعيل، الله لم يعطهم شجرة تثمر، ولا أكل يأكلونه، ولا شاة يشربون منها ويحلبونها، وإنما أعطاهم الماء، وهو طعام طعم، وشفاء سقم، هذا الماء الذي فيه الحياة، فالناس لو انقطعوا عن الطعام يصبرون، لكن لو انقطع عنهم الماء لا يستطيعون.

الطعام يستطيع الناس أن يجففوه، يغلفوه، يأتوا به من ديارهم، لكن الماء حمله صعب، وفقدانه سهل، بسهولة تُخرق القربة فيذهب كل الماء، لا يستطيعون المحافظة عليه.

فيوسّع الله الأرض لكل هؤلاء ويجلب لهم أهم أسباب الحياة وهو الماء، ويكون هذا الماء لمن آمن بالله طعام طعم، وشفاء سقم، وهو شيء عجيب، الذي يأخذه حقيقة ويريد أن يشبع به يشبع به، لكن هذا على قدر الإيمان.

المقصد الآن انظروا إلى عظمة الله وحكمته، لما حصلت هذه القصة كلها، سقى الله الناس إلى قرب قيام الساعة، والناس أكثر شيء يحتاجونه في مثل هذا الموقف الماء، والله -عزَّ وجلَّ- يقيمهم بهذا الماء.

فيدبّر الله للخلق كل أحوالهم، ثم ليس هذا فقط، بل جعل من الآيات أن هذا البيت الكريم تأتي له الثمرات من كل مكان، فالناس يأتون ومعهم الثمرات، وأُحلّ البيع والشراء، من أجل انتقال المنافع، فتجد في هذا البيت ما لا تجده في أي مكان في العالم حتى في مسألة المنافع وانتقالها، والبيع والشراء، لكن الأصل أن الله-سبحانه وتعالى-جعل للخلق كلهم موردًا يحيون به، وهو ماء زمزم.

معنى هذا: أن هذه آية من آيات الله، توسيعه على خلقه مهما كان عددهم، وجعل الماء مورد الحياة الأساسي هو آية إسماعيل -عليه السلام- التي فجّرها الله -عزَّ وجلَّ- تحت قدميه، فمن ثم الذي يفكر في زمزم، يفكر في عدد الحجّاج،

يفكر في حفظهم، يفكر في سيرهم، يعرف أنهم في هذه الأحوال كلها هم في حفظ من الله.

ومهما حصل من حوادث، انسبها للعدد الكلّي، يعني لا تغتر بأن يقولوا لك: "مات مئة، مات ألفًا" هو عدد طبعًا، لكن انسب هذا العدد للعدد الكلّي، وانظر كيف أنهم يتحركون كل هذه الحركات، وينتقلون، فلا يموت وراء هذا إلا ألف، من أصل مليونين، أو مليونين ونصف، أو ثلاثة ملايين، هذا العدد احسبه بالنسبة ستجده نسبة بسيطة جدًا، والباقون كلهم حفظهم الله، فالناس في حفظ الله، في رعاية الله، وهذه آية من آيات الله، التوسيع، الحفظ، السّقيا، الطّعام، كلّها من آيات الله، ونحن في هذا العهد المبارك نجد أنه لا يوجد جوعى في الحج، فتجد هذا يعطي هذا، وهذا يعطي هذا، هذا كلّه نعيم، وأهل مكة المباركون يخدمون الحجّاج بكل الطرق الممكن، والحمد لله الأمر متيسر مع الأمن والأمان، وهذا مما يزيد انشراح صدور الحجّاج، ويزيد من تفرّغهم للطاعات، فالله -عزَّ وجلَّ- جعل لهؤلاء باب أجر، ولهؤلاء باب أجر، وهذا كله من فضل الله -عزَّ وجلَّ- على الخلق، الذي يزور مكة في هذه الأيام يجد مشاعر مختلفة تمامًا، مكة كأنها عروس، والكل يساهم في هذا العرس، والناس متراحمة قلوبهم على الحجّاج، يرونهم من بعيد فيفرحون بهم، ويشعرون أنهم

ضيوف، ومن باب البهجة دخولهم، من أين أتت هذه المشاعر إلا أن الله ألقاها في قلوب الخلق من أجل أن يرحم بعضهم بعضًا، وهذا كلّه من فضل الله علينا، أسال الله -عزَّ وجلَّ- أن يزيدنا إيمانًا وتقوى، وهذه المشاعر لا تأتي إلا لأهل الإيمان، أما الذين يستغلون الحجّاج ويخادعونهم فهؤلاء معروف ما هي أحوالهم.

من توحيد الله أن نعلم أن أمّ القرى جعلها الله جامعة للخلق، جمع فيها الخلق، وأمرهم بالحج، فظهرت هذه الآيات كلّها وغيرها من الآيات الدقيقة التي تحتاج إلى تأمل وتفكر، فالذي يذهب إلى الحج، ويطوف في المطاف، ويسعى في السعي، لا يكون كل همه أن يزاحم الناس ويدفعهم ويبعدهم، ولا همه أن ينتهي! تأمل، تأمل، كيف جمع هؤلاء من كل مكان، وكيف هؤلاء لا يفقهون ولا يفهمون لغة العرب لكن أتى بهم ربّ العالمين من كل مكان، وكيف أنهم عندما يخرجون تجد قلوبهم منقطعة، يكادون يهلكون عندما يعرفون أنهم الآن مسافرون، وأحيانًا يخفف عنهم أنهم ذاهبون إلى المدينة، فلا ترى بكاءهم، ولا نحيبهم، ولا مشاعر الألم الموجودة عندهم، وترى الذي لن يذهب إلى المدينة هو الذي تكاد تذهب نفسه حسرات، فهذا كلّه شيء عجيب، كيف يكون في القلب هذا

الحب، إلا لأن هذا بيت الله، وهؤلاء عباد الله، وهذا من آيات الله العظيمة المطلوب منا التفكّر فيها.

وممّا ذكر في فضائل بيت الله، وفي مكة، أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-قال: «واللهِ إنَّكِ لَخَيرُ أرضِ اللهِ، وأحَبُّ الأرضِ إلى اللهِ، ولَولا أنِّي أُخرِجتُ مِنكِ ما خَرَجتُ»[5]

وهذا يزيد المؤمنين حبًا وتعظيمًا لهذا البيت العظيم، ولهذه الأرض التي حرّمها الله، وهذا من توحيدك لأنك سمعت أنها أحب أرض الله إلى الله، فحينما تكون موحدًا سيكون المحبوب عند الله هو المحبوب عندك. وهذه قاعدة كلامنا عن البيت الحرام وعن مكة وعن الشوق إليها والشوق إلى الحج، قاعدته: أن هذه الأرض يحبها الله، وأنت تحب ما يحب الله.

نتكلم أيضًا عن فضائل مكة -حرسها الله-:

ما ثبت عن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أنه قال: «إنَّ مَكَّةَ حرَّمَها اللَّهُ تعالى ولم يحرِّمها النَّاسُ ولا يحلُّ لامرئٍ يؤمنُ باللَّهِ واليومِ الآخرِ أن يسفِكَ بِها دمًا أو يعضدَ بِها شجرةً فإنْ أحدٌ ترخَّصَ لقتالِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فيها فقولوا لَه إنَّ اللَّهَ أذِنَ لرسولِهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ولم يأذن لَكَ وإنَّما أذِنَ لي فيها ساعةً مِن نهارِ وقد عادت حرمتُها اليومَ

---

[5]() أخرجه أحمد (18715) .

كحرمتِها بالأمسِ وليبلِّغِ الشَّاهدُ الغائبَ»[6] هذا الموقف معلوم أنه بعد فتح مكة وخطبته -صلَّى الله عليه وسلَّم- فيها.

وفي رواية متفق عليها أنه قال: «هذا البلَدُ حرَّمَهُ اللَّهُ يومَ خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، فَهوَ حرامٌ بحُرمةِ اللَّهِ إلى يومِ القيامةِ لا يُعضَدُ شوكة ولا يُنفَّرُ صيدُهُ، ولا يُلتَقطُ لقطتَهُ، إلَّا من عرَّفَها، ولا يُختَلى خلاهُ»، يعني كل شيء محمي فيها، وهذا من مكانتها العظيمة.

لا ينتهي الكلام عن مكة، ولكن لا بأس سننتقل إلى النقطة التالية لنتصور ما يتصل بالتوحيد أيضًا.

الآن هؤلاء الذين سيخرجون إلى الحج سيلبّون، التلبية هذه من شعائر الحج، فمما يزيد توحيدك وإيمانك ما قاله النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- عن التلبية، فقد أخبرنا بقوله الصادق: «ما من مُلَبٍّ يلبِّي إلَّا لبَّى ما عن يَمينِهِ وعَن شِمالِهِ من شَجرٍ وحَجرٍ حتَّى تَنقطِعَ الأرضُ هاهُنا وَهاهُنا يعني عن يَمينِهِ وعَن شمالِهِ»[7]، ما هو المقصود؟ المقصود أنك تعرف أن ربّ العالمين تشهد له السّماوات والأرض، بل حتى الحصى والحجارة تسبح لربّ العالمين، تشهد له بالوحدانية، وتسبح له، وتسبيحها الخاص بها ما يعلمه إلا الله،

---

[6]() أخرجه البخاري (104).
[7]() أخرجه الترمذي (828).

ويزيد على هذا التسبيح أن هذه الأرض إذا سمعت ملبّيًا يلبّي، لبّت معه.

هذه التلبية ستبدأ من بعد المواقيت، يعني كل منطقة المواقيت وما بعدها إلى أن يصل الناس إلى أماكنهم، إلى أن تنقطع التلبية، في المكان الذي تنقطع فيه التلبية، متى تنقطع التلبية؟ تنقطع التلبية عندما نرمي جمرة العقبة.

معنى هذا أن كل هذه الأماكن تشهد لك، تسمع معك، وترد معك، وتؤمن بالله العظيم، فهذا عندما يكون في القلب توحيدًا وإيمانًا، ستشعر تجاه الأشياء حولك بمشاعر مختلفة، يربطك بهذه الأرض، وهذا التراب، وهذه الحصى، وهذا الشجر، يربطك به ما لا يربطك بغيره، فإذا كان العبد موحدًا سيعلم أن الله أنطق كل شيء، وأن كل شيء يسبح لله -وهذا التسبيح نحن لا نفقهه- حتى هذا الشجر، وهذا الحجر، وهذه الأرض مشتركة معنا في شأن، وهو شأن التلبية، هذا دليل على أن التلبية شأنها عند الله عظيم، ولا بد من العناية بها، وعظمة التلبية آتية من عظمة التوحيد الذي في التلبية. فتوحد أنت الله ويشاركك في توحيد الله كل شيء.

وهذا ليس شيئًا عجيبًا، فكما تعلمون أن الرسول الكريم لما كان يخطب على جذع شجرة، وصنعوا له المنبر، حنّ هذا

الجذع لرسول الله ولما يُلقى من فيه الطاهر -صلَّى الله عليه وسلَّم- من خيرٍ، ومن إيمان، ومن توحيد.

إذًا هذه الأشياء يسمعها الله، وتنطق كما أذن الله لها، وتسبح الله -عزَّ وجلَّ- وتشاركك أنت في التلبية. كل هذه الأمور نؤمن بها وهي متصلة بالغيب، ومتصلة بتوحيد الله.

العقول إذا آمنت سلّمت، وإذا ضعف إيمانها حتى لو لم تكذّب الخبر، لكنها لا تدركه، لا تتعامل معه، لا تبقيه يقظًا في قلبها، فأحيانًا كثيرةٌ نحن نخرج إلى الحج نرى الشجر والحجر لكن ما نشعر أنه توجد علاقة تربطنا به.

عندما يقوى الإيمان، ويقوى توحيد الله، تشارك هذه الأشياء في كونك عبد، وهي تشهد معك بوحدانية الله، وأنت تفترق عنها أنه رُتّب على تسبيحك، وتكبيرك، وتهليلك، وعبادتك الأجور العظيمة، فهذا تشريف من الله لك رغم أنها تشاركك التسبيح، وتشاركك التلبية وقت التلبية.

هذا ممّا يدل على عظمة الله، ويحتاجه الإنسان ليزداد يقينًا، ويزداد إقبالًا على ربّ العالمين، الله غني عن عبادة كل الخلق، إنّما رحمةً بهم خصّهم بالشرائع، ورتّب على هذه الشرائع الأجور العظيمة، فأنت مكرّم، أنعم عليك وأعطاك، وسخّر لك كل شيء، وهداك، وبيّن لك الطريق، وأرسل لك

الرسول، وجعل لك بيتًا تزوره فيه، وجعل هذا الحجر الأسود فيه ما فيه من الخيرات، وجعل الطواف والسعي عبادات تحط الخطايا وترفع الدرجات، هذا كله وإذا اقبلت على ربك أقبل عليك، وإذا خطوت إليه شبرًا، تقدم إليك ذراعًا، فهذا كله من كرمه، حتى الأحجار والأشجار تسبح ربّ العالمين لكنك مُيزت بالعطايا، وبالتسخير، وبترتيب الأجر على ذلك، وهذا كله من رحمة الله، ومن عطية الله، ومن إحسان الله، فلا بد أن تقبل على الله إقبال من يعرف كيف أن الله كرّمه، وأنعم عليه، خصوصًا من فتحوا أعينهم على الإسلام، وما عرفوا إلا الإيمان، وما عرفوا إلا السنة، هؤلاء في أعظم نعيم يعيشه الإنسان، ما تاهوا، ولا ضاعوا، ولا ذاقوا المرّ في الحياة، ولا تخبطوا، إنما اهتدوا مباشرة بفضل الله، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، لكنه ليس حكرًا علينا كما اتفقنا، الذي يذهب إلى الحج يرى الناس من كل مكان، والله -عزَّ وجلَّ- يهدي من يشاء.

هناك حديث مر معنا سابقًا فيه كيف أن هذه الأرض العظيمة إنما تشهد بوجود الأنبياء، وفيه مروره -صلَّى الله عليه وسلَّم- على الوادي، فسأل: «أيُّ وادٍ هذا؟ فقالوا: هذا وادي الأزرَقِ، قال: كَأنِّي أنظُرُ إلى موسى عليه السَّلامُ هابِطًا مِنَ الثَّنيَّةِ، وله جُؤارٌ إلى اللهِ بالتَّلبيةِ، ثُمَّ أتى على ثَنيَّةِ

هَرشى، فقال: أيُّ ثَنيَّةٍ هذه؟ قالوا: ثَنيَّةُ هَرشى، قال: كَأنِّي أنظُرُ إلى يونُسَ بنِ مَتَّى عليه السَّلامُ على ناقةٍ حَمراءَ جَعدةٍ عليه جُبَّةٌ مِن صوفٍ»[8] فيصف الأنبياء أنهم مروا على هذه الأرض.

(كَأنِّي أنظُرُ إلى موسى عليه السَّلامُ هابِطًا مِنَ الثَّنيَّةِ، وله جُؤارٌ إلى اللهِ بالتَّلبيةِ) معناها: أنه يصرخ بكل صوته ملبيًا لله، وهو يعلم أن الله -عزَّ وجلَّ- يسمعه حتى لو خفض صوته، لكن هنا الحالة مختلفة تمامًا، هذا ليس لإسماع الله؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- يسمع السر والنجوى، والأصل في الدعاء أن الإنسان يخفض صوته، لكن هذا ليس لإسماع ربّ العالمين، ربّ العالمين قريب من الخلق، انّما هذه مشاركة لكل الأرض، وسمعتم في النص السابق: «ما من مُلَبٍّ يلبِّي إلَّا لَبَّى ما عن يَمينِهِ وعَن شِمالِهِ من شَجرٍ وحَجرٍ حتَّى تَنقطِعَ الأرضُ هاهُنا وَهاهُنا يعني عن يَمينِهِ وعَن شمالِهِ» يعني: على قدر ما يسمع هؤلاء وهؤلاء، الأنبياء يرفعون أصواتهم بالتلبية، فهذا العج والسّج، أن يكون هناك أصوات وضجيج، لكن كلها بتلبية الله، بالاستجابة لنداء الله، بإشهاد الأرض على ذلك، وبإشهاد الخلق على الاستجابة لأمر الله.

---

[8]() أخرجه مسلم (166).

وقد مرّ معنا قول رسول الله: «صلَّى في مسجدِ الخَيْفِ سبعون نبيًّا»[9]. هذا المسجد الذي يصلّي فيه الناس بكل يسر وسهولة، صلّى فيه أكثر من سبعين نبيًا. اتفقنا أن كل هذه الجموع تتحرك استجابة لأمر الله.

نأتي الآن ننظر إلى مسألة المهمة في التوحيد في الحج: وهي: الأمر بالإتمام، الله -عزَّ وجلَّ- يقول: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[10]

الأمر بإتمام الحج والعمرة لله، هذه اللام هنا لها موطن عجيب، يعني كل عمل ستعمله في إتمام الحج والعمرة لا بد أن تكون الأعمال بالتفصيل لله، بمعنى أنك تبقى ذاكرًا أنت تقصد من؟ وتطلب رضا من؟ فلا يشغلك الانتقال من مكان إلى مكان، ولا يشغلك صورة النّسك عن حقيقة المقصد في النّسك.

كان يكفينا أن يقال لنا: "أتموا الحج والعمرة"، لكن قيل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، يعني كل عمل تشرع فيه مطلوب منك أن تتمّه، لكن تتمّه لمن؟ خالصًا لوجه الله، طالبًا ثناء الله، فهذه الآية أحاطت بمسألة الحج والعمرة من جهتين:

---

[9]() أخرجه الطبراني (11/453) (12283).
[10]() البقرة: 196.

1. من جهة الأمر بالإتمام.

وهذا ليس موضوعنا نحن موضوعنا الجهة الثانية، لكن دعنا نفهم المقصود بالإتمام إجمالًا، من جهة الإتمام أي: لا تعبث في الحج والعمرة، كن منقادًا، مهذبًا، عالمًا بأن الله -عزَّ وجلَّ- أمرك بكل عمل من هذه الأعمال التي علّمك النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- أن توحد الله فيها، اقبل وانقاد وسِر كما أمرك الله، لا تبحث عن المخارج، ودع عنك كل الفتاوى التي تسمعها، أنه يصح لك أن تفعل كذا، ولو أخطأت وفعلت كذا فعليك فدية، هذا يصلح بعد أن تبذل جهدك في الإتمام، ليس أن تدخل الحج وأنت تنوي أن لا تتم.

الأمر بإتمام الحج معناه أن يدخل الإنسان الحج وهو مريد لإتمام الحج لله، لا تدخل الحج وأنت قاصد عدم إتمامه، لا تدخل بهذه الصورة، إنما ادخل وأنت قاصد الإتمام، أي تلاعب يعني أنك تخالف مسألة الإتمام، أي قصد للتهرب من الأعمال تكون قد خالفت به مسألة الإتمام، هذا الطرف الأول من الآية.

2. يأتينا الطرف الثاني، كل إتمام تفعله اقصد به وجه الله، لا بد أن يكون الله على بالك في كل عمل، لا تنشغل وأنت خارج من هنا داخل إلى هنا بالأشياء، انشغل بطلب رضا

الله، وهذه المسألة لاحظوها في الناس ستجدونها تامة الوضوح.

الناس كانوا في الزمن الماضي عندما ينتظرون عند طبيب، موعد، أو ينتظرون في أي مكان انتظار في المستشفى أو غيرها، تشعر أنهم شديدي الملل، يملّون بسرعة، اليوم مع وجود الأجهزة يرتّبون لأنفسهم ماذا سيشاهدون عند الطبيب! تجلس المرأة لاهية، تقلب وتقلب لا تعلم ما الذي يحدث في الخارج، والحمد لله كُفي الطبيب شرهم، وتركهم على هذا، وربما جلب لهم (شبكة) ليزيدهم التهاءً!
عندما يكون للناس مقصد وينشغلون به حتى الملل يذهب منهم، ولا يشعرون بالوقت، ولا يشعرون بالتفاصيل.

عندما تكون أنت ذاهبًا تريد وجه الله، وتجد نفسك منتظرًا عند القطار ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات، الذي رزقته، واقفًا، أو جالسًا، أيًّا كانت حالتك، ستنشغل بطلب رضاه، وأنت متأكد من أن كل ثانية ودقيقة تمر عليك حسناتك تزيد، سيئاتك تذهب، وكلّما زدت تلبية كلّما أجابك، أنت تلبيه وهو يجيب، وملائكته تكتب، وصبرك يزيد، وطلبك للحول والقوة ينفعك، عندما تعيش هذا في التفكير، أن الله الذي استوى على العرش يذكرك وأنت الضعيف الذي هنا، وتلبيه وتطلبه

فيجيبك، وأنت الآن بعد ثلاث ساعات من هذا الموقف ستذهب إلى عرفة، وتلقاه، ويكون كل همك أنه عندما ألقاك اجعلني ممن انطلق لسانه في الدعاء والتوبة، ولما ألقاك اجعل خير أيامي يوم لقائك، فكن شاغلك لقاء الملك، ستجد نفسك قد خفّ عليك كل شيء، لكن حينما لا تفكّر في الله، ستبقى كل الذي تفكّر فيه، ذاهبًا عائدًا في الطريق، دعنا نلحق القطار، القطار، القطار!

الناس يذكرون القطار أكثر مما يذكرون ربهم، وهم ذاهبون للقطار يذكرونه أكثر مما يذكرون الله، وهم عائدون كذلك يذكرونه أكثر مما يذكرون الله! واسألوا الناس: "كيف كان حجكم السنة الماضية أو التي قبلها؟" ستجدون أنهم سيذكرون القطار أكثر مما يذكرون ربّ العالمين، و هذا إشارة إلى أننا لم نفهم قوله تعالى: (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)، لو فهمناه **فلن** نذكر كيف كنا ننتظر في الحافلات عشر ساعات، والاختناق والطرق، لن نحتاج أن نقول كل هذا الكلام.

يعتبر الإنسان غير راضٍ إذا انشغل بنفس الأدوات، لكن متى يغيب عقله عن هذه الأدوات؟ عندما يبدأ يفكّر من هو الآن عند الله، وكيف أن هذا الحبس في هذا المكان إنما

كفّارات وتطهير وكأنه يقال: "قبل أن تلقاني تطهّر من الذّنوب، وتُب، واستعِن، واسأل، وحضّر نفسك، تصل" قد أعطاك الله من القوة، والحول، والفتح، والعطية، فاجعل لسانك ينطلق بالدعاء وبالذكر، أنت في كل الأحوال محبوس على طاعة الله، حبست واقفًا عند القطار، حبست في منى، حبست في عرفه، أنت الخمس أيام محبوس على طاعة الله.

إذا فهم الناس ذلك سيتحلون بالهدوء، سيصبحون يتعاملون مع بعضهم بحالة من الأدب، لكن عندما يحسّون أنّه صراع، يشعرون أنهم لابد أن يذهبوا، وعندما يذهبون لا تفهم ماذا يريدون!

أنت في طاعة الله، أينما كنت في الحج أنت في طاعة الله، فأتمّ الحج والعمرة لله، واقصد الله، واطلب الله، ولا تفكر إلا في رضاه، واسأله الحول والقوة، وقل له: "حبستني هنا اجعلها مانعة من الحبس عندما ألقاك، لا تحبسني يوم لقائك عن رضاك، حبستني هنا لا تحبس لساني عن ذكرك، ولا عن شكرك، وأنا راضٍ بكل ما تقسمه لي، قسمت لي هنا كذا، ذهبت بسرعة الحمد لله، بقيت محبوسًا الحمد لله، أهم شيء أني محبوس في طاعتك، وغيري محبوس عن طاعتك"، أنت الذي حبست عند القطار محبوس على طاعة

الله، محبوس كأنّك مصلٍّ صائمٍ، والذي يحبس عن طاعة الله هو الذي يُتحسر عليه، لكن أوصلك إلى أرضه الشريفة، أنت في الأرض الحرام، لو قدّرت نعمة الله ما يكون موقفك في هذه الحالة الهيجان، إنما سيحصل هدوء، وكل الناس بعون الله يصلون، والحمد لله نحن لم نسمع أبدًا في كل هذه السنوات أن هناك من لم يقفوا عرفة، كل الناس وقفوا عرفة حتى لو وصلوا أذان العصر، لا يوجد أحد وصل على أذان العصر على أي حال، لكن حتى لو وصلوا أذان العصر لازال الناس يصلون عرفة، وأنت أهم شيء أنك تصلي في وقت مناسب، وتدعو ربك وتسأله، وأنت باقٍ في طاعة الله، ما خرجت عن الطاعة، أنت لو حبست خارج منى تبكي على نفسك، لكن الحمد لله أنت موجود في منى.

أنا أقصد بهذا الكلام أن الذي يتمّ الحج والعمرة لله معناها أنه سيرى الله في كلّ موقف، وسيعرف أنه عابد لله، وأنه طائع لله، وأنه محبوس على طاعة الله، ويبقى يتمّم ما استطاع طاعته لله، والله معك في كل مكان، والله اختبرك وحبسك ليرى ماذا تفعل، هل ترى الأسباب أم ترى ربّ الأسباب؟ تسأله هو أم تسأل الناس؟ هل تنكسر بين يدي الله ذلًا وخوفًا أم يكون عقلك كلّه مرتبطًا بالخلق وأحوالهم؟

نحن في اختبار عظيم الحقيقة، الدنيا كلّها في اختبار عظيم، أن الإنسان يرى الله -عزَّ وجلَّ- من وراء الأشياء، ويأتي الحج يصعّب علينا الاختبار أضعافًا؛ لأنها دقائق يظهر فيها حقيقة الإيمان.

أسأل الله أن يوفقنا والحجّاج والمعتمرين لصحة الإيمان، وييسر لهم حجّهم وعمرتهم، ويحملهم حملًا يسيرًا، ويوصلهم أيسر ما يكون!

السلام عليكم ورحمة الله